الكتاب الرابع الأصول فقد صدر متأخرا وعدل فيه صاحبه من بعض مواقفه في كتبه الثلاثة الأولى.

4. 2. 1 - فضل تمام حسان على الدراسات اللغوية العربيّة

يكمن فضل تمام حسان في تأكيده على الحاجة إلى منهج اللغة. ولهذا العنوان مغزى عميق يؤكد ضرورة القطع مع التجريبيّة في مباشرة اللّغة العربيّة. ويلحّ على ضرورة مباشرة القضايا اللّغوية ضمن إطار نظريّ منظم. وإن قلت إن أصحاب اللسانيات المقارنة قالوا قوله قلنا بل قالوا قولا شبيها به إذ نادوا بضرورة الاستفادة من النظرة التطوريّة أو ممّا سموه الدرس اللّغوي الحديث. و لكن لا نجد عندهم هذا الوضوح المنهجي الممثّل لأهمّ مظاهر التخلّص من التجريبيّة الّذي افتتح به مناهج البحث في اللّغة [1]. ويبدو تمام حسان في هذا النص بالذات أكثر اللّغويين العرب وعيا بضرورة بناء الدراسة اللّغوية على أسس خاصّة بها وإن لم يكن أوّل اللّغويين العرب الذين وعوا أن تيسير النحو العربي وإصلاحه لا يمكن أن يتمّ بدون التفكير في إعادة النظر في منهج النحو العربي.

و كان فيما نعلم أول اللّغويين العرب في المناداة بضرورة استقلال البحث اللّغوي بخصائص تميّزه من غيره من البحوث والاختصاصات. ولذلك بدأ مباشرة بعد هذه المقدمة بفصل عنوانه استقلال المنهج اللّغوي. ويلح فيه على أن الدرسات اللّغوية الحديثة تأسست بالقطع مع التفكير الفلسفي القديم [2] ولم يكتف بالمناداة بذلك بل نشر أهمّ المفاهيم التي كوّنت مرجعا نظريا للدراسة اللّغوية. ومكّنها من منهج كما استقامت بعد الصياغة السوسيرية. فمكّن قرّاء التراث من إطار نظري منظم يمكن من محاورة التراث محاورة مجدية. وكان أهمّ ما نشره التمييز بين وجهتي النظر الآنية و الزمانية. وقد رأينا النتائج المترتبة عن عدم الوعي به في أعمال بعض اللغويين العرب عند قراءتهم للتراث.

أما النقطة الثانية التي كان له الفضل في توضيحها ونشرها فتتمثّل في التمييز بين اللسان والكلام وقد أحسن توضيحها واستخلاص ما يترتب عن التسليم

---

1 مناهج البحث في اللّغة ص 9

2 المرجع نفسه ص 22